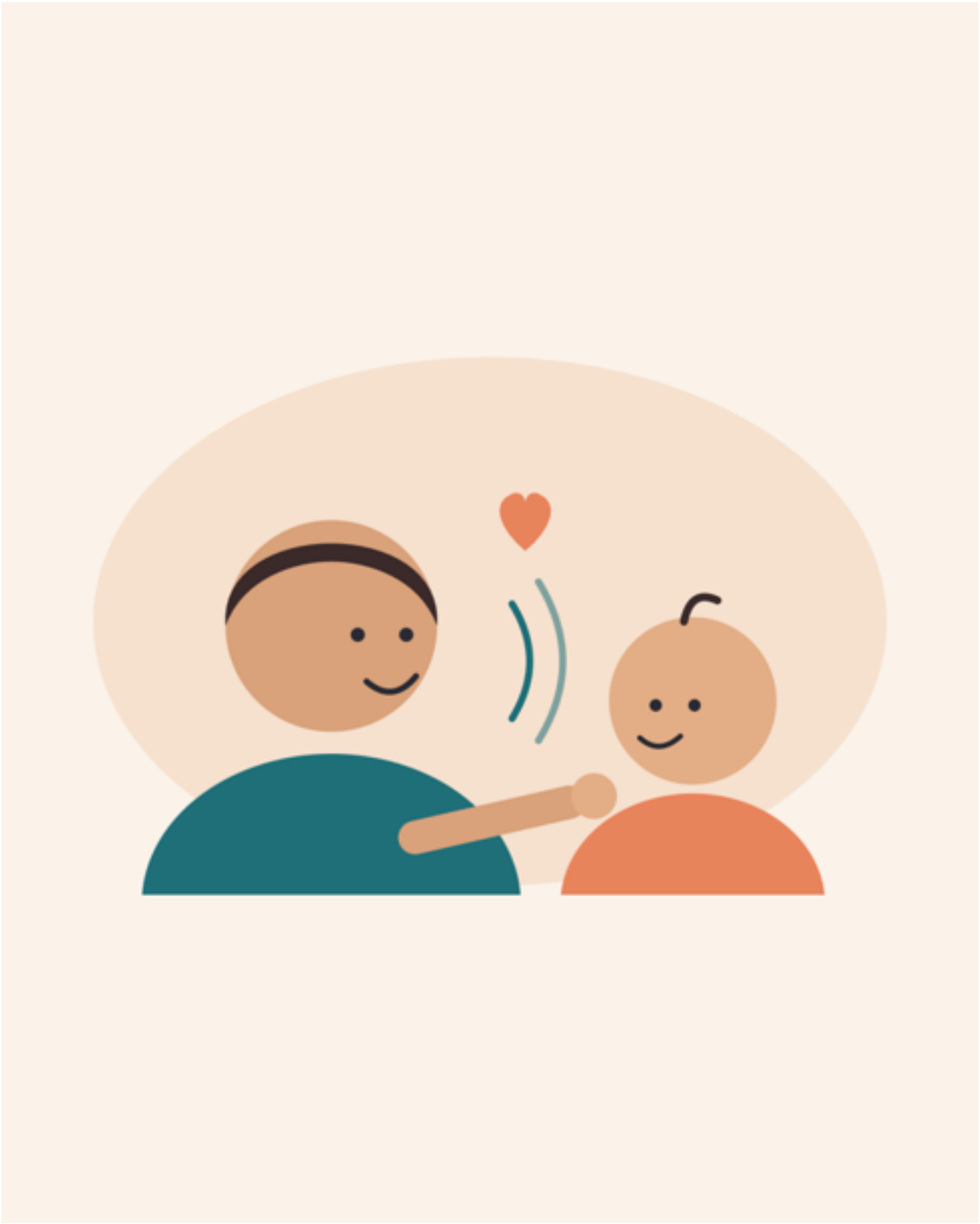
التواصل مع الرضيع يبدأ قبل الكلام: كيف يشجع الوالدان طفلهما على المبادرة والتفاعل؟



كشفت دراسة (1) من جامعة غرب سيدني أن الطفل، حتى في سن أربعة أشهر - يصبح مشاركًا نشطًا في عملية "التواصل المتبادل" مع والديه.

وسلطت نتائج الدراسة الضوء على أهمية هذا التواصل المبكر في تشكيل جوانب متعددة من نمو الطفل. فهو لا يقتصر على تمهيد الطريق لاكتسابه اللغة والقدرة على استخدامها (2)، بل يمتد أثره إلى نمو قدراته العقلية، مثل التفكير والتعلم والذاكرة (3)، وإلى تنمية القدرة على التواصل مع الآخرين، وبناء العلاقات، والتكيف مع الظروف الاجتماعية المختلفة التي يواجهها الطفل أثناء تفاعله مع الآخرين الاجتماعية.

يُقصد بالمواقف الاجتماعية المختلفة الظروف التي يواجهها الطفل أثناء تفاعله مع الآخرين، مثل اللعب والمشاركة، والتواصل مع أشخاص جدد، والتعاون مع أقرانه، والتعامل مع الخلافات، والاستجابة لمشاعر الآخرين. وتشمل أيضًا قدرته على فهم ما يتطلبه كل موقف، واختيار السلوك المناسب له.

وفي البحث الذي نشره معهد ماركس للدماغ والسلوك والتنمية (MARCS)، سعى الباحثون إلى فهم الكيفية التي يؤثر بها مزاج الطفل (4) في تفاعلات والديه معه، وما إذا كانت السمات المزاجية المبكرة للطفل تسهم في تحديد طبيعة هذا التواصل. بعبارة أخرى، أراد الباحثون معرفة ما إذا كان اختلاف أمزجة الأطفال وطباعهم، مثل الهدوء أو سرعة الانزعاج أو الحساسية للمؤثرات المحيطة، يؤثر في طريقة تفاعل الوالدين مع أطفالهم وأسلوب حديثهم إليهم. فالتواصل بين الطفل ووالديه عملية متبادلة؛ إذ لا يتأثر الطفل بطريقة تعامل والديه معه فحسب، بل تؤثر خصائصه المزاجية أيضًا في استجابات الوالدين وطريقة تفاعلهم معه.

وتقول الدكتورة أنطونيا غويتز (Goetz Antonia)، الباحثة الرئيسة في الدراسة، إن للطفل شخصيته الفردية منذ أشهره الأولى، وإنه يستخدم ما يميزه من سمات وخصائص للتأثير في تواصله مع والديه.

وتضيف غويتز: "اعتدنا أن نولي اهتمامًا كبيرًا لمقدار ما يتحدث به الوالدان إلى طفلهما، ولطريقة حديثهما معه؛ مثل استخدام نبرة صوتية شبيهة بالغناء بإيقاع معين تتغير فيها طبقات الصوت بين الارتفاع والانخفاض والإكثار من الكلمات، وتكرار مناغاته (5)، وذلك لجذب انتباه الطفل، وإثارة تفاعله، والتعبير عن مشاعر المودة تجاهه.

وهذه الأساليب مهمة بلا شك، لكن التواصل لا يصدر فعّلا عن الوالدين ويتلقاه الطفل بشكل سلبي فحسب، بل هو عملية يتبادل فيها الطرفان التأثير والاستجابة. وقد يكون للطفل في هذه العملية دور أكبر بكثير مما كنا نتصور.

وتتجاوز أهمية التواصل المبكر مجرد اكتساب الطفل اللغة؛ إذ تمثل السنوات الأولى من حياته مرحلة حاسمة في بناء قدراته اللغوية، والإدراكية، والاجتماعية، والانفعالية. فمن خلال التفاعل مع المحيطين به، يتعلم فهم مشاعره، كالفرح والحزن والخوف والغضب، وكيفية التعبير عنها بالكلمات أو بتعبيرات الوجه والسلوك. ومع نموه، يكتسب القدرة على التعامل مع هذه المشاعر وتنظيم استجاباته لها، كما يتعلم تمييز مشاعر الآخرين وفهمها والاستجابة لها بطريقة مناسبة، والسيطرة على اندفاعاته (6).

فالتواصل والتفاعل الاجتماعي ليسا مجرد وسيلتين لتبادل الكلام والمعلومات، بل هما من الركائز التي تنشأ عليها العلاقات الإنسانية، وتتطور من خلالهما قدرة الطفل على مشاركة الآخرين أفكارنا ومشاعرنا. فالطفل لا يتبادل معلومات مع والديه أفكارًا بالكلام، وإنما يقوم التواصل بينهما على إرسال إشارات وتبادل استجابات؛ فالطفل يعبر عن احتياجاته ومشاعره بالبكاء والابتسامات والمناغاة والتواصل البصري والحركات، ويستجيب الوالدان لهذه الإشارات بالكلام واللمس وتعبيرات الوجه. ومن خلال هذا التفاعل المتبادل، تنشأ الروابط العاطفية والاجتماعية بين الطفل ووالديه، وتتطور قدرته تدريجيًا على التواصل مع الآخرين.

"يشكل التفاعل الاجتماعي والتواصل اللغوي أساس العلاقات الإنسانية؛ فمن خلالهما يتبادل الناس المعلومات والأفكار والمشاعر".

ولرصد التفاعلات المتبادلة بين الوالدين وأطفالهم، استخدم الباحثون أجهزة تسجيل صغيرة تعمل بنظام "لينا" (LENA)، وهو اختصار لنظام تحليل البيئة اللغوية (7). وأتاحت لهم هذه الأجهزة تتبّع عدد الكلمات التي يستخدمها الوالدان، ومقدار حديثهما الموجّه إلى الطفل، وعدد المرات التي يتبادل فيها الطرفان أدوار الحديث والتواصل.

وبينت التسجيلات أن الرضّع لا يكتفون بالاستجابة للأصوات والكلمات التي يسمعونها من أمهاتهم وآبائهم، بل يبادرون هم أيضًا بإصدار أصواتهم ومحاولة الدخول في هذا التفاعل.

وتقول غويتز: "من المهم أن ينتبه الوالدان إلى الطريقة التي يتواصل بها طفلهما، وأن ينسجما مع إيقاع تفاعله، بقدر اهتمامهما بالحديث إليه. فلا داعي لأن تنشغل الأم أو الأب بعدّ الكلمات التي يقولانها للطفل، أو بالقلق بشأن اختيار الكلمات الصحيحة؛ فالأهم هو الإصغاء إلى استجاباته والتفاعل معها. ويمكن تحقيق ذلك ببساطة من خلال التوقف قليلًا وانتظار أن يصدر الطفل صوتًا أو يقوم بحركة، ثم الاستجابة له".

وتسهم هذه اللحظات البسيطة، التي يتناوب فيها الوالدان والطفل على المبادرة والاستجابة، في تنمية مهارات الطفل الاجتماعية والتواصلية.

وخلاصة الأمر أن على الوالدين أن يمنحا طفلهما فرصة للمبادرة، وأن يواكبا إيقاعه الخاص في التفاعل، سواء أكان هادئًا أم كثير الحركة وسريع الانزعاج؛ فلكل طفل طريقته الخاصة في التواصل. ومن خلال الاستجابة المستمرة لإشاراته وأصواته، وتكرار هذه التفاعلات يومًا بعد يوم، يستطيع الوالدان الإسهام في تنمية قدراته اللغوية والإدراكية والاجتماعية.

ومن النتائج اللافتة للدراسة أن الأطفال الأكثر ميلًا إلى الانطواء، وكذلك الذين لا يستطيعون الحفاظ على انتباههم مدة طويلة على مهمة معينة أو نشاط واحد (8)، كانوا أكثر تفاعلًا مع والديهم، وتبادلوا معهم أدوار التواصل مرات أكثر.

وتوضح غويتز: "تكشف هذه النتيجة أن الأطفال، حتى في هذه السن المبكرة، يضفون سماتهم الفردية على عملية التواصل، ويسهمون في تشكيل طبيعة التفاعل مع والديهم، تمامًا كما يحدث في مراحل العمر المتقدمة".

وقد يُعزى ذلك إلى أن الأطفال الأكثر ميلًا إلى الانطواء يفضلون التفاعلات القصيرة والهادئة مع الطرف الآخر، وهو ما يتيح فرصًا أكثر لتبادل أدوار التواصل. أما الأطفال الذين يجدون صعوبة في الحفاظ على انتباههم، فقد يكونون أكثر ميلًا إلى طلب التفاعل مع والديهم، إما بسبب سرعة تململهم (9)، أو لأنهم يعبرون عن مشاعرهم بصورة مباشرة تلفت انتباه الوالدين وتدفعهما إلى الاستجابة لهم.

وهكذا، فعلى الرغم من أهمية عدد الكلمات التي يوجهها الوالدان إلى الطفل، فإن طبيعة التفاعل بينهما وإيقاعه وتتابع أدواره تتأثر أيضًا بسمات الطفل وخصائصه الشخصية.

فالأطفال يختلفون في طباعهم وطرق استجابتهم للمحيطين بهم؛ فبعضهم هادئ، وبعضهم كثير النشاط أو سريع الانزعاج، كما يختلفون في مدى إقبالهم على التفاعل وسرعة استجابتهم للآخرين. وتنعكس هذه الاختلافات على طبيعة التواصل بينهم وبين والديهم، وعلى الطريقة التي يتبادل بها الطرفان المبادرة والاستجابة أثناء التفاعل.